

دور الخليفة بن علال في المقاومة الشعبية الوطنية 1837-1843م.

سلاماني عبد القادر*

المقدمة:

تعتبر دراسة تاريخ الجزائر من المواضيع الهامة في التاريخ الحديث والمعاصر لما تتضمنه من إشكاليات، كمشروع الدولة الجزائرية الحديثة والمقاومة الشعبية الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر، لذا خصصنا دراسة تكشف عن أطروحات جديدة البحث لإثراء التاريخ الوطني والكشف عن الجوانب الفاعلة والمؤثرة وفق أطر منطقية واقعية، بطريقة تحليلية للوقائع التاريخية والبحث عن أبعادها الحقيقية، فمن خلال إبراز بعض الشخصيات الجزائرية التي ساهمت في التضحية من أجل الوطن تمثلت منها في شخصية الخليفة محمد بن علال وأثر الخلافة التي استحدثها الأمير عبد القادر من أجل توحيد المجتمع الجزائري لاحتضان المقاومة الشعبية الوطنية بعد توسع الاحتلال الفرنسي على حساب الأراضي الجزائرية.

بعد مبايعة الأمير عبد القادر قام بتعيين عدة خلفاء على أقاليم الجزائر وخاصة بعد عقد معاهدة التافنة سنة 1837م، ومن بينهم الخليفة محمد بن علال الذي تم تعيينه على مقاطعة مليانة، فمن هو هذا الخليفة ؟، وكيف تمت توليته ؟ وما هي أهم معاركه ومساهماته في المقاومة الشعبية الوطنية؟.

* أستاذ مساعد (أ) قسم التاريخ، جامعة بشار

- الوضع العام بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر:

يعتبر سقوط مدينة الجزائر على يد قوات الاحتلال الفرنسي، بعد توقيع الداي حسين لمعاهدة الاستسلام مع قائد الحملة الفرنسية الجنرال ديورمون "De Bourmont"¹ في 5 جويلية 1830م، قد أعطى للسلطات الفرنسية الأحقية في بسط النفوذ على البلاد، بعد نهاية الحكم العثماني بالجزائر، حيث لم تكن هناك سلطة تمثل الجزائر وتدافع عن الشعب الجزائري خلال هذه الفترة بعد توقيع معاهدة الاستسلام، لذا قامت قوات الاحتلال الفرنسي بالتوسع في المناطق المحاذية لمدينة الجزائر،² بتسيير عدة حملات عسكرية على مدينة البليدة في 23 جويلية 1830م،³ ولاقت هذه الحملات مقاومة شعبية، ولكنها لم تكن منظمة، وقد تم احتلال البليدة بقيادة الجنرال بواي "Boyer" في 18 نوفمبر 1830م⁴ واحتلال المدينة في 22 نوفمبر، وقد قاومت عدة قبائل بم منطقة الوسط الجزائري قوات الاحتلال الفرنسي أهمها قبائل الحراش وقبائل حجوط خاصة بعد المجزرة الفرنسية ضد قبيلة العوفية في 7 أبريل 1832م، أما قوات الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال دوروفيكو "De Rovigo"⁵ فقد استعملت أساليب التفرقة بين أبناء الشعب الجزائري للقضاء على المقاومة الشعبية⁶ التي لم تعرف بمنطقة الوسط تنظيما لمواصلة نضالها وهذا نتيجة لنقص الوعي الوطني وعدم معرفتهم لمشروع الاحتلال الفرنسي.

لقد أراد الأمير عبد القادر إعطاء المقاومة الشعبية بعدا وطنيا، لذا سعى إلى إنشاء مقاطعات إدارية تعمل على تنظيم مصالح الشعب الجزائري في إطار المقاومة الوطنية⁷ ضد قوات الاحتلال الفرنسي، فلم يكن الأمير جهويا ولم يكن متعصبا لأفكاره، بل قام بتولية رجال من أبناء المقاطعة التي يحكمونها منهم الخليفة محمد بن علال.

1- تعريف الخليفة محمد بن علال :

محمد بن علال بن حلام أصله من بني زيان ملوك تلمسان⁸ ولد بمدينة القليعة⁹ سنة 1810م، وهو ينتمي إلى عائلة مثقفة اشتهرت بالعلم¹⁰، كان جده سيدي علي مبارك

والي صالح بمدينة مليانة، خلف خمسة أبناء من بينهم محمد بن علال، أسس زاوية لتعليم الطلبة مبادئ القرآن والتوحيد والفقه فاكتملت المدينة سمعة مشرفة¹¹.

كان محمد بن علال ذا قامة متوسطة، فاقدًا لإحدى عينيه، لون بشرته بيضاء شفتاه كبيرتان وطبعه حربي ويتمتع بسمعة واحترام، كان أعز و أخلص أصدقاء الأمير عبد القادر بمثابة ساعده الأيمن، برز بقيادته وطاقته القتالية، وكان صارما في قراراته، ويعتبر من أفضل القادة العسكريين وخصما عنيدا للقوات الفرنسية ورجلا ذا صلاح واستقامة¹².

2- توليه شؤون الخلافة:

عين محمد بن علال خليفة على مقاطعة مليانة¹³ بعد وفاة الخليفة الحاج محي الدين ولد سيدي مبارك فعين على جميع المناطق المحيطة بالعاصمة من م نقطة جبل الدخلة إلى واد الفضة¹⁴، وبعد اتفاقية التافنة طلب الأمير عبد القادر من قبائل المنطقة إعلان الانضمام للصف الوطني والمشاركة في المقاومة ضد قوات الاحتلال الفرنسي.

واستطاع الخليفة من جمع قوات معتبرة من المجاهدين وتحضيرهم لمهمة المقاومة وتجهئهم معنويا للتضحية وتقديم الدعم المادي لمواجهة قوات الاحتلال الفرنسي وصد مشروعها الاستعماري.

3- مساهمته في بناء مؤسسات الدولة:

لقد كلف الخليفة ببناء حصن تازة كقاعدة عسكرية وتموينية لقوات المقاومة الوطنية والذي كان موقعه على مسافة 65 كلم جنوب شرق مليانة كان يحتوي على مجموعة من مخازن القمح والحديد والنحاس والرصاص والكبريت، وبه ورشة لصناعة الأسلحة والصيانة ومطحنتان ومصنع للبرانس ومصهرة للحديد،¹⁵ كما أسس مصنعا للبنادق وآخر لإنتاج البارود بمليانة¹⁶.

كما ساهم الخليفة في السهر على الأمن بالمقاطعة تط بيقا للعدالة التي ألح الأمير عبد القادر على توفيرها، حيث راسل بن علال المارشال فالي "Valée" في عدة رسائل تعالج مسائل متعلقة، بتوفير الأمن والعدالة بالمقاطعة.¹⁷

واصل الأمير عبد القادر توحيد الصف الوطني لمواصلة المقاومة الشعبية والعمل على إرساء أركان الدولة الجزائرية لصد التوسع الفرنسي والسعي لإفشال مشروعه الاستيطاني ، لذا وقف في وجه كل من يرفض فكرة الوحدة الوطنية وفي مواجهة كل ما يمس بالمصلحة العامة للوطن.

4- أهم المعارك التي خاضها الخليفة بن علال بالمقاطعة:

قام الأمير عبد القادر بمنطقة "بوخرشوفة" بعد نقض معاهدة التافنة بعقد مجلس استشاري مع الخلفاء نظرا لزيادة التوسع الفرنسي واختراق أبواب الحديد ، لذا قرر استئناف المقاومة، فأصدر قرارا إلى القوات الوطنية بمحاصرة الحاميات الفرنسية وكل مراكزها،¹⁸ فتولى الخليفة بن علال تنظيم القوات وتنفيذ الأوامر الموكلة إليه وتم التوجه نحو مدينة "شرشال"¹⁹ التي احتلتها القوات الفرنسية بقيادة الماريشال "فالي" من 15 إلى 21 مارس 1840م، ليتخذها مركزا للقوات العسكرية في عملياتها التوسعية في الداخل ، أبقى بها العقيد كافينيكاك "Cavaignac" ليتولى عملية الدفاع عنها،²⁰ ليتوجه الجنرال فالي لاحتلال مدينة المدية في 25 مارس 1840م، فلما أحس الأمير بخطر التوسع الفرنسي واحتلاله للمدن التي كانت تمون المقاومة الوطنية ماديا ومعنويا فتقدم على رأس القوات الوطنية لعرقلة مواجهة توسع هذه القوات التي كانت بإمرة الجنرال فالي.²¹

أ- معركة غابة كرزازة العفرون 27 أبريل 1840 م:

تمكنت قوات المقاومة الشعبية بعد سبع سنوات من المعارك من زيادة تكثيف العمليات الحربية ضد قوات الاحتلال الفرنسي سنة 1839م فلجأت هذه القوات الفرنسية إلى التراجع²²، رغم تزايد عدد الجند إلى 58 ألف مقاتل،²³ دون احتساب قوات القبائل المنضمة لقوات الجيش الفرنسي من فرسان الدواير والزماله والصبايحية وغيرها من القبائل الجزائرية، وقد أصدرت الحكومة الفرنسية على يد الوزير تيار "Thièr" شهر مارس 1840م أوامرها للجنرال فالي²⁴ ببسط نفوذه على جميع التراب الوطني، والقضاء على المقاومة الشعبية بجميع الطرق والوسائل، ووافقت الحكومة على مشروع الحملة سنة 1840م في احتلال المدية، مليانة وشرشال، في 27 أبريل 1840م هاجمت قوات المقاومة الشعبية بقيادة الخليفة بن علال قوات الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال فالي بغابة كرزازة فتصدت القوات الفرنسية لهذه

المجموعات بالقصف المدفعي²⁵، وجمعت القوات الفرنسية صفوفها بجبال العفرون، والتحتت القوات الوطنية بقيادة الخليفة بن علّال بقوات المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر بمرتفعات مضيق موزاية²⁶.

دامت المعركة يوما كاملا، تقدمت فيه قوات الاحتلال الفرنسي وتمركزت بقمة العفرون بعدما خسرت 6 قتلى من بينهم العقيد ميلتجان "Miltegen" بينما لم تتلق قوات المقاومة الشعبية بقيادة الخليفة بن علّال خسائر كبيرة، وتمكنت من عرقلة سير قوات الاحتلال الفرنسي.

ب- معركة موزاية 12 ماي 1840 م :

بعد 8 سنوات من الجهد الحربي لازالت المقاومة الشعبية الوطنية تواصل مقاومتها ومطاردتها لقوات الاحتلال الفرنسي بإمكانيات ضئيلة و لمسافات بعيدة على أحصنتها مع نقص في الذخيرة والمؤونة، بعد جهد شاق تواصل مقاومتها على بعد 400 كلم مسافة مسيرة خمسة أيام إلا أن إيمانهم بالجهاد والمقاومة وحب الوطن جعلهم يتناسون كل هذه الصعاب، فلم تكن معركة غابة كرزازة إلا بداية للمجابهة، وبينما كانت قوات الاحتلال الفرنسي تستعد للسير نحو المدينة، كانت قوات المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر بمضيق موزاية تتجهياً لوقف الزحف الفرنسي²⁷.

في 12 ماي 1840م هاجمت قوات المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر القوات الفرنسية وبعد هذه المشادات بمرتفع الغداء تقدمت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال شونقارني "Changarnier"²⁸ فعملت على تكثيف عملية القصف المدفعي على مواقع تركزت قوات المقاومة الشعبية لتوفير الوقت للقوات الفرنسية لإعادة تنظيم صفوفها بقيادة الجنرال فالي وتواصلت المشادات بالسلّاح الأبيض من طرف قوات المقاومة الشعبية نظراً لنفاذ ذخيرة بنادقهم تأكيداً لعزيمتهم في الحرب والاستشهاد في سبيل الوطن²⁹.

كانت الخسائر الفرنسية أكثر من خسائر قوات المقاومة الشعبية، حيث تم قتل 84 جندي وضابط في صفوفهم وجرّح 152 عسكري من بينهم الجنرال شرام "Charram"، والمقدم قزويون "Gzioun" والجنرال روميني "Roménier" ومساعدته الجنرال موروبو "Morbo"

30، ألحقت المعركة خسائر بالجيش الفرنسي وأظهرت مدى تشبث قوات المقاومة الشعبية بالمقاومة والدفاع عن الأرض الجزائرية، وتعتبر هذه المعارك ذات بعد وطني للمقاومة الجزائرية التي كان يسعى الأمير عبد القادر لتوطيدها بكامل التراب الوطني، بينما كانت مشاريع الاحتلال الفرنسي هي احتلال المدن الداخلية لخنق المقاومة الجزائرية وتوسيع عملية الاحتلال للقضاء على روح المقاومة الجزائرية وإخضاع القبائل التي كانت تمون قوات المقاومة الشعبية.

ج- معركة غابة الزيتون 20 ماي 1840 م :

بعدما توقف القتال بموزاية في 12 ماي 1840م تراجعت قوات المقاومة الشعبية بقيادة الأمير عبد القادر نحو جنوب موزاية³¹ لمواجهة جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال فالي بغابة الزيتون قرب مدينة المدية وبعد جهود كبيرة ومسافات طويلة قطعتها قوات المقاومة الشعبية مع قلة في المؤونة والذخيرة الحربية والجهد الذي تحملته هذه الخيول لقطع هذه المسافات الطويلة هاجمت قوات المقاومة الشعبية القوات الفرنسية بقيادة الجنرال دامبياز "Dampiaz" مستغلة الفوضى التي عمت صفوف الجيش الفرنسي بالدخول في اشتباكات بالسلح الأبيض حفاظا على ذخيرتهم وسيطروا على المرتفعات المحاذية لوادي الهريان³²، وبعد سيطرت القوات الوطنية على مجريات الأحداث أمر الجنرال فالي بتكثيف القصف المدفعي واستمر القتال حتى الليل، فأمر الأمير عبد القادر المجاهدين بالتراجع بانتظام من أرض المعركة، بينما توجه جيش الاحتلال الفرنسي بقيادة الجنرال فالي نحو مدينة البليدة التي دخلها في 22 ماي³³.

كانت إستراتيجية الأمير عبد القادر من المعركة هي إلحاق أكبر عدد ممكن من الخسائر في صفوف القوات الفرنسية، وقد تمكنت قوات المقاومة الشعبية من بلوغ أهدافها، فكانت خسائر الجيش الفرنسي في هذه المعركة حوالي 40 قتيل و 212 جريحا حسب الإحصائيات الفرنسية، من دون تعرض القوات الجزائرية لخسائر كبيرة³⁴.

5- التفاوض الفرنسي لإغراء خلفاء الأمير عبد القادر للتخلي عن المقاومة الوطنية

لم تكن نية الجنرال بيجو "Bugeaud" إجراء الحوار بمقاطعة وهران بل الحرب والعمل للقضاء على العاصمة تاقدت والاستقرار بمدينة معسكر، أما فيما يخص إقليم الجزائر والتيطري كان الأمر مختلفا رغم أن قبائل المنطقة أظهرت مقاومة عنيفة، وفي أوائل سنة 1841م صعب على جيش الاحتلال الفرنسي مطاردة قوات المقاومة الشعبية نظرا لصعوبة الجبال المحيطة بالمتيجة، حيث كان هناك ثلاث خلفاء أقوياء يشكلون خطرا عليهم ، وهم خليفة مليانة بن علال وخليفة المدية البركاني وخليفة سباو بن سالم³⁵، لذا كاتبت السلطات الفرنسية الخليفة محمد بن علال ولد سيدي مبارك عن طريق المقدم دولامورسيير "De LaMoricière" والمقدم بليسي "Pellissier"، وكان الجنرال بيجو يرجو فقط حياد الخلفاء لأن ظروف الحرب لا تسمح بإملاء مثل هذه الشروط المقترحة من وزير الحرب سولت "solt" والتي تنوي السلطات الفرنسية تحقيقها في تحالفها مع زعماء القبائل.

أ- الشروط الفرنسية لاحتواء المقاومة الشعبية:

يقول الوزير سولت : "تعترف السلطات الفرنسية لكل من خليفة مليانة بن علال وخليفة المدية البركاني وخليفة سباو بن سالم بأحقيتهم في أراضي محددة ويمكنهم الحصول على هبات ومنح سنوية، وشترط عليهم الخدمة العسكرية والجزية القانونية، وأن تعيش عائلاتهم في مدينة محمية ويتم تسليم الرهائن".

عرض الجنرال بيجو في أواخر فيفري 1842م، على الخليفة بن علال مبلغ مالي قدره 500,000 فرنك، مع إعادة أملاكه الواسعة ومعاشا قدره 50,000 فرنك سنويا، شرط تسليم نفسه للقوات الفرنسية ، والإقامة بمدينة الجزائر أو القليعة."

ب- رد الخليفة محمد بن علال على الإغراءات الفرنسية:

وصل جواب بن علال في 12 مارس 1842م إلى السلطات الفرنسية وهو كالآتي : " ليكن في علمك أنني أحكم وأقاتل وأعفو ضمن منطقة تمتد من جبل الدحلة إلى وادي الفضة وماذا أراك تعرض علي مقابل الحكم الذي أمارسه لإعلاء كلمة الله وفي خدمة سيدي الأمير عبد القادر ؟ أراك تعرض علي أملاكي تلك التي سوف أستعيدها بالبارود، مثلما فقدتها بالبارود وتعرض علي المال والخيانة"³⁶.

حاول الجنرال بيجو استمالة وإغراء خلفاء الدولة الجزائرية للتخلّي عن المقاومة الوطنية والالتحاق بالصف الفرنسي مقابل مبالغ مالية وأراضي تمنحها لهم السلطات الفرنسية خدمة للمصالح الفرنسية وحتى يتسنى للقوات الفرنسية الذهاب بأكبر عدد من قواتها إلى منطقة الغرب الجزائري للقضاء على المقاومة الشعبية الوطنية بقيادة الأمير عبد القادر، ولم تحاول فتح مجالات للتفاوض مع خلفاء الجهة الغربية لأنها كانت تعرف نواياهم مسبقاً لذا حاولت غلق جبهة من جبهات الحرب للاستفادة من هذه القوات الفرنسية بالجهة الغربية لأن الجهة الشرقية لم تسبب لقوات الاحتلال الفرنسي أي قلق، أرادت التخلص من الجبهة الوسطى حتى تتمكن من القضاء على المقاومة الجزائرية بالجهة الغربية التي كانت أكثر شدة وإصراراً على مقاومة قوات الاحتلال الفرنسي وطردها من الأرض الجزائرية.

6- انسحاب الخليفة بن علال من مقاطعته:

لقد تراجع الخليفة بن علال من منطقة حكمه بعد استسلام أبرز قبائل المنطقة وإعلان البعض منها الخضوع لقوات الاحتلال الفرنسي، أهمها قبيلة بني زروال بعدما هاجمتها القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو في 14 ماي 1842 حيث تم أسر 230 شخصاً ونهب 2500 رأس غنم.³⁷

قامت القوات الفرنسية بقيادة القائد "بيسون" Bisson " يومي 6-7 جوان 1842 بلهجوم على قبيلة "بني مناصر" وتم الاستيلاء على عدة غنائم 18000 رأس بقر وغنم، وقد حاول رجال هذه القبيلة مواجهة القوات الفرنسية رغم نقص عتادهم الحربي فاستطاعوا من القضاء على 200 جندي فرنسي، وقتل الضابط "بيسون"، بينما انسحبت القوات الفرنسية المتبقية نحو مدينة مليانة.³⁸

في 09 جوان 1842م توجهت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بيجو بتعداد 9000 جندي بعدما قسمت إلى فرقتين، لتزحف على قبائل "بني مناد" و"سوماطة" و"بوللوان"، فقامت بنهب الغنائم وتم أسر معظم السكان، كانت الأحداث رهيبية ولم تتوقف القوات الفرنسية عن أعمالها الإجرامية إلا بعد أن امثل شيوخ هذه القبائل أمام الجنرالات الفرنسيين لطلب الأمان وإعلان الاستسلام نهائياً، فتم العفو عن 800 أسير لسوماطة أما بقية القبائل

التي لم تعلن استسلامها مثل "بوللون" و"بني مناد" فعوقبت ببشاعة وشدد عليها الخناق، وتبعهم كل من قبيلة بني صالح وحجوط التي صعب إخضاعها إلا بعدما ألحقت هذه الأخيرة خسائر بالقوات الفرنسية.

لقد تأزم الوضع بضواحي مدينة الجزائر من جراء هذه الحمالات الفرنسية المتكررة لإخضاع القبائل الجزائرية، إلى جانب الأعمال التعسفية الممارسة ضد الشعب الجزائري³⁹، رأى الجنرال بيجو أنها هذه هي الفرصة المناسبة من أجل التفاوض مع الخليفة بن علّال لإعلان استسلامه، وقد عرض هذا الاقتراح على الخليفة في أواخر شهر فيفري 1842م.⁴⁰

قامت القوات الفرنسية بحملة على المناطق الواقعة بين "القلعة" و"برج الأربعة" وحوش موزاية" وصولاً إلى الساحل البحري، وما بين مدينة البليدة ومليانة من يوم 13 ماي إلى 16 ماي 1842م، حيث تم الهجوم على قبيلة "حجوط"، وتم أسر 420 شخصاً ونهب 1190 رأس بقر و1800 رأس خروف و150 حصاناً وعدد من الأسلحة والسروج وتم تجنيد 140 شخصاً من قبيلة حجوط لحنود بالمعسكر الفرنسي.⁴¹

قامت قبيلة "جندل" بطلب الأمان من العقيد كومان "Camon"⁴² في 17 جوان 1842 بزعامة بوعلام أخ آغا جندل الذي رافق العقيد الفرنسي ب : 100 فارس، وانضم إليهم الباش آغا "بوعلام بن شريف" مع قواته و "أخ الآغا سي جلول بن فراح" واستسلمت على يده قبيلة "بني عياد" في 7 جويلية 1842م التي أعطت الدعم التام للجيش الفرنسي بقيادة العقيد كورت "Korte" الذي قام بمهاجمة القوات الجزائرية التي كانت منسحبة بقيادة الخليفة إلى منطقة بوغار بمنطقة واد وسال، ومن الخسائر الفرنسية هي : 5 قتلى و16 جريحاً و20 حصاناً، أما الخسائر بالصف الجزائري تمثلت في 40 فرساً و3000 أسير والاستيلاء على 1500 جمل و300 حصان و1500 رأس غنم، وكانت هذه الغزوة شديدة الوقوع على الخليفة وقواته.⁴³

7- مشاركته بمعركة زويلين في 01 جويلية 1842:

انطلقت القوات الوطنية بقيادة الخليفة "محمد بن علّال" اتجاه الصحراء وذلك بعدما استسلمت جميع القبائل التي كانت تساعد وتساند المقاومة الوطنية بالدعم المادي والمعنوي

فقد بوغتت قوات المقاومة الشعبية من طرف قوات الجنرال "شونقارني" بتعداد 250 جنديا ، فقامت القوات الوطنية بقيادة الخليفة باعتراض الهجوم وصده لحماية النساء والأطفال والشيوخ والقطعان، وبعد مشادات عنيفة بين الطرفين قتل من الصف الفرنسي 50 قناصا وجرح 11 شخصا، بينما تم أسر : 3000 شخصا ونهب 1500 حمل و 300 حصان و40000 رأس غنم⁴⁴ ، من طرف القوات الفرنسية، وقد زادت هذه المعركة من مأساة الخليفة وقواته، وانسحبت العائلات المتبقية إلى منطقة "طاقين" حيث عانت في الطريق من شدة العطش ونقص المؤونة ، لذا سعى الخليفة لإنقاذهم فقام مع بعض فرسانه بالولوج إلى التل للبحث عن المطامير التي وجدها قد أفرغت بعد الحملة التي شنتها القوات الفرنسية بالملطقة بقيادة الجنرال " شونقارني"، فتوجه الخليفة نحو قبائل "السرسو" التي كانت موالية لفرنسا، فلستدرجته ثم حاصرته وتم نزع أسلحتهم بينما نجح الخليفة بنفسه و8 من فرسانه⁴⁵

وفي شهر أكتوبر 1843م كانت القوات الجزائرية بقيادة الأمير عبد القادر ميقلحدة بمنطقة الأنجاد ، واجهت العديد من الصعوبات ، أمر من الخليفة بن علال للالتحاق به ، الذي عمل جاهدا تجنب الاحتدام مع القوات الفرنسية، لكن القوات ال فرنسية بقيادة الجنرال تمبور "Tampoure" علمت عن تحركات قوات الخليفة فجهزت قوات تعدادها 800 جندي من المشاة والفرسان وثلاثة مدافع ميدان، تتبعت أثار قوات الخليفة يومي 09 و 10 نوفمبر، وتأكدت القوات الفرنسية من مكان تواجدهم ذلك بعدما أرشدهم أحد الأشخاص من قبائل "الجعافرة" الذي زود الفرنسيين بمعلومات دقيقة.

أرادت قوات الخليفة الاستراحة بعدما أنهكت من المشي وشدة العطش، فهوجمت صباح يوم 11 نوفمبر من طرف القوات الفرنسية وتم محاصرتها، أسرع الخليفة لتدارك الوضع وقد نجح في إحباط هجوم كتيبة القناصة، لكنه أدرك أن المهمة صعبة للدخول في معركة غير متكافئة بالمقارنة مع تعداد وتجهيز القوات الفرنسية ، اتخذ الخليفة وقواته موقفا دفاعيا وسط السهل، ورغم تلوؤم الوضع لم ينسحب الخليفة من ميدان القتال، وتقدم الضابط كاسانيول "cassaniolle" مع ثلاثة قناصة من الخليفة ظنا منهم أنه لا يستطيع متابعة القتال، لكنه قام بإطلاق النار على الجندي الأ ول فأسقطه قتيلا، وحاول الضابط كاسانيول ضربه

بالسيف لكنه أطلق النار مرة ثانية على إحدى قوائم الحصان فأسقطه، وقتل الجندي الثالث بطلقة نار من مسدسه وأخرج سيفه لمقاتلة الجندي الأخير لكن هذا الأخير كان قد أطلق النار على الخليفة في صدره ، فسقط شهيدا يوم "11 نوفمبر 1843م" فاقرب منه الجندي الفرنسي بحذر شديد وكان لباسه قد تلطخ بالدم ، ومن ضحايا هذه المعركة 404 شهيد و360 أسير والاستحواذ على 600 بندقية وعدد من الخيول، ذلك حسب الإحصائيات الفرنسية،⁴⁶ وتم التنكيل بجثة الخليفة الذي طالما عانت القوات الفرنسية من مواجهاته وصلابته وتأكدت من إخلاصه للأمير والوطن وتفانيه في خدمته ومكانته التي تأثرت بها حتى القوات الفرنسية وجنرالاتها خاصة بعدما أرسلت جثته إلى وهران فعندما رآها الجنرال "دولامورسيير" تأسف لذلك التنكيل أي قطع رأس ويد الخليفة⁴⁷ ، الذي حارب من أجل الدفاع عن وطنه وشعبه وحرية ودينه الإسلامي وهويته الجزائرية.

لثّر الأمير لاستشهاد الخليفة واعتبر ذلك فاجعة وفقدان خليفة دوخ الجنرالات الفرنسيين وعمل جاهدا للتضحية من أجل الوطن،⁴⁸ إلا أن الأمير رغم هذه المآسي لم يفقد العزيمة ولم ييأس بل زادته هذه التضحيات الوطنية نفسا آخر لتنظيم المقاومة ومطاردة القوات الفرنسية بإمكاناته الضئيلة، وقد فرحت السلطات الفرنسية لهذه الواقعة وانتصارها بمعركة واد المالح⁴⁹.

-الخاتمة :

كانت استماتة الجيش الفرنسي لاحتلال الجزائر كبيرة ومكلفة بعدما لاقت مقاومة جزائرية رفضت التواجد الفرنسي بالأرض الجزائرية، لكن السياسة الفرنسية ومشروعها الاستعماري الاستيطاني كان أكثر جاهزية عدة وعددا في جميع الميادين لإفشال ميلاد الدولة الجزائرية

الحديثة بقيادة الأمير عبد القادر رفقة رجال أخلصوا وفاء للوطن من بينهم الخليفة محمد بن علال والذي يعتبر أكثر خلفاء وفاء وإخلاصا الذي فهم فلسفة مبدأ الاعتماد على النفس .

حاول الخليفة محمد بن علال بعد تعيينه من قبل الأمير عبد القادر لتسيير مقاطعة مليانة تنظيم صفوف المقاومة الشعبية، بإمكانيات منعدمة، حيث لم تكن القوات التي تحارب في صفه سوى جنود متطوعين ليس لديهم خبرة ودراية بالأمور العسكرية والإدارية في تنظيم شؤون المقاطعة من تجنيد وتعبئة وتموين، فقد كانت مهمة الخليفة صعبة في مهمة تهيئة الوضع وتسييره وخاصة في إطار تنظيم أطر المقاومة والدفاع عن الأراضي الجزائرية

خاضت قوات المقاومة الشعبية بقيادة الخليفة محمد بن علال عدة معارك ضد القوات الفرنسية خلال 7 سنوات، تبرز فيها شخصية القائد وتفانيه في خدمة الوطن والدفاع عنه بكل ما أوتي من قوة، حيث هناك عدة شهادات فرنسية حول الخليفة ، يصفه الجنرال شونفاري، إن بن علال متفاني في مهمته ومخلص للأمير في السراء والضراء، لذا تراه مندفعاً في المعركة، ولا يعرف معنى المخاطر .

- الهوامش:

¹ - الماريشال دي بورمون: ولد سنة 1773م، بمدينة مابن، التحق بالمدرسة العسكرية بسوارار، شارك في حروب نابليون، وتولى قيادة الحملة الفرنسية على الجزائر في سنة 1830، وفي أوت 1830 عزل من منصبه ليعود إلى فرنسا حيث توفي في سنة 1846 انظر:

D. Henry, *Les conquérants de l'Algérie (1830-1852)* Berger-Levrault, éd., Paris, 1930, p. 10.
C. Rousset, *La conquête d'Alger*, éd. Plon, Paris, 1880, p. 141.

Ch.-A. Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine conquête et colonisation (1827- 1871)*, éd. PUF, Paris, 1979, p. 20.

L. Plée, *Abd-el-kader*, éd. Berba, Paris, 1866, p. 34.

⁵ - سافاري دي دوروفيقيو ، ولد في 26 أبريل 1774 ، و توفي في باريس 26 جوان 1833 ، اشترك في معارك النمسا، بولونيا اسبانيا ، وبروسيا، وفي سنة 1810، وفي سنة 1831 ، شارك في معارك بالجزائر وعاد الى فرنسا

في 1833، انظر : حرب أديب ، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر (1808-1847)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ج. 1، ص. 62.

⁶ - الجيلالي عبد الرحمن ، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، ط. 4، بيروت، 1980، ج. 4، ص. 26.

⁷ - حرب أديب ، المرجع السابق، ج. 1، ص. 46-51.

⁸ L. Plée, Abd-el-kader, *op.cit*, p. 162.

⁹ - القليعة: أسسها الحسن بن خير الدين بربروس عام 1550 على ربوة على بعد 40 كلم غرب مدينة الجزائر لمراقبة قبائل المتيجة المتمردين آنذاك وانزل بها عددا من اللاجئين الأندلس المشردين من الطغيان الإسباني أنظر:

E. Daumas, *Correspondances du capitaine Daumas consul à Mascara, 1837-1839*, Collection de documents inédits par le Gouvernement Général d'Algérie, éd. Jourdan, Paris, 1921, p.81.

¹⁰ - T. Changarnier, *Mémoire du général Changarnier*, ed, Levraut, Paris, 1930., p.18.

¹¹ - الحاج صادق محمد ، مليانة ووليها سيدي احمد بن يوسف، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1964، ص. 143-144.

¹² - T. Changarnier, *Mémoire du général Changarnier*, *op.cit.*, p. 64 -65.

¹³ D. Henry, *Les conquérants de l'Algérie (1830-1852)*, *op.cit*, p. 38.

¹⁴ R. Demont, *Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847*, éd. Arel, Paris, 1847, t. 1, p. 331 -332.

¹⁵ Ch.-A. Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine conquête et colonisation (1827- 1871)* *op.cit*, p 185.

¹⁶ - تشرشل شارل هنري ، حياة الأمير عبد القادر، تر أبو القاسم سعد الله، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2004، ص. 139.

¹⁷ G. Yver, *Lettres de Ben Allal au Marechal Valée*, R.A, N°58, 1914, p 07-19.

¹⁸ M. Emrit, *L'Algérie à l'époque d'Abd elkader*, éd. Larousse, Paris, 1951, p. 148.

¹⁹ - شرسال: مدينة على ساحل البحر المتوسط سكنها منذ القدم قليل من البربر والكراغلة، تبعد حوالي 70 كم عن الجزائر غربا 40 كلم شمال غرب البليلة و 30 كلم شمال مليانة يحدها غربا جبال الظهرة جعل منها الأمير عبد القادر مرفأ تجاريا وأوكل إدارتها إلى الخليفة بن علل. أنظر:

E. Daumas, *Correspondances du capitaine Daumas consul à Mascara, 1837-1839*, *op.cit*, p143.

²⁰ A. Bellemare., Abd-El-Kader sa vie politique et militaire, Edit Bouchene, France, 2003, p.271

²¹ T. Changarnier, *Mémoire du général Changarnier*, *op.cit.*, p. 87.

²² - حرب أديب ، المرجع السابق، ج. 2، ص. 253.

²³ P. Azan, *L'émir Abdelkader 1808-1883, du fanatisme musulman au patriotisme français*, éd. Hachette, Paris, 1929, p. 163.

²⁴ - فالي : ولد في برلين لوشاتو بتاريخ 17 ديسمبر 1773، حارب في إسبانيا برتبة عميد سنة 1809-1811، أرسل إلى الجزائر كحاكم عام في 1 ديسمبر 1837- 29 جانفي 1841 قاد عدة معارك أهمها غابة كرازة ، و موزاية ، وغاية الزيتون أنظر: أديب حرب، المرجع السابق، ج. 2، ص. 131.

²⁵ P. Azan, *L'émir Abdelkader 1808-1883, du fanatisme musulman au patriotisme français*, *op. cit.*, p. 195.

²⁶ *Ibid.*, id., p. 195.

²⁷ - حرب أديب ، المرجع السابق، ج. 2، ص. 283-285.

²⁸ - شونقارني: ولد في 26 أبريل 1793 ببلدة اوتان تدرس في الكلية الحربية بسان سير، حارب في إسبانيا سنة 1823، وفي أوائل سنة 1837، أرسل إلى الجزائر ليتسلم في 15 ماي 1843 قيادة الكتيبة 61، وأصبح قائدا لحامية جامع الغزوات، خاض معارك ضد قوات المقاومة الشعبية الجزائرية، أهمها معركة وادي متوس في 23 سبتمبر 1845، ومعركة جبل كركور في 23 سبتمبر 1845، توفي 14 فيفري 1877 أنظر:

P. Azan, *Les grands soldats de l'Algérie*, Alger, 1930, p.88- 91.

²⁹ - حرب أديب ، المرجع السابق، ج. 2، ص. 295-298.

³⁰ - تشرشل شارل هنري ، المصدر السابق، ص. 243.

³¹ - حرب أديب ، المرجع السابق، ج. 2، ص. 306-308.

³² - نفسه، ص. 310.

³³ - نفسه، ص. 311.

- P. Azan, *L'émir Abdelkader 1808-1883, du fanatisme musulman au patriotisme français*, op. cit., p. 165. ⁻³⁴
- R. Germain, *La politique indigène de Bugeaud*, éd. Larousse, Paris, 1955, t. 2, p., 79. ⁻³⁵
- E. Daumas, *La grande Kabylie, étude historique*, éd. Hachette, Paris, 1847, p. 219. ⁻³⁶
- R. Demont, *Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847*, T. 2, op. cit., p. 182. ⁻³⁷
- Ibid., p. 189. ⁻³⁸
- Ibid., pp. 190- 191. ⁻³⁹
- T. Changarnier, *Mémoire du général Changarnier*, op.cit, p. 219 -229. ⁻⁴⁰
- Ibid., p. 242. ⁻⁴¹
- 42- كومان : قائد فيلق في 1830, وعقيد في 1840, قاد قسمة المدينة ووحدته من 18 فرقة أرسلها المارشال للبحث عن الأمير توفي في 1845 أنظر:
- T. Changarnier, *Mémoire du général Changarnier*, op.cit., p. 242. ⁻⁴³
- Ibid., pp. 246- 248. ⁻⁴⁴
- R. Demont, *Histoire de la conquête de l'Algérie de 1830-1847*, T.1, op. cit.,p.192- 193. ⁻⁴⁵
- Ibid., p. 195. ⁻⁴⁶
- Ibid., pp. 263- 267. ⁻⁴⁷
- De Mintimpry, *Souvenirs d'un officier d'état major histoire de l'établissement de la domination française dans la Province d'Oran*, op.cit., p. 179. ⁻⁴⁸
- L .Plée, Abd-el-kader, op.cit. 169. ⁻⁴⁹
- A. Latarille, *La campagne de 1844 au Maroc la bataille d'Isly*, L.M ,Paris, 1912, p. 04.